النحو العربي من التقعيد إلى التجديد
بحث في مبررات التيسير

أ .محمد عطا الله

جامعة حمه لخضر الوادي

ملخص:

يحاول هذا البحث الوقوف على المبررات التي دفعت ببعض دارسي اللغة العربية ونحوها إلى دعوات تجديد وتيسير النحو العربي وإصلاحه، وقد أجملت في أسباب خمسة هي: تعقيد المادة العلمية الموروثة، ووجود بون شاسع بين نظريات النحو وواقع العربية اليوم، وعقم الطريقة المعتمدة في تدريس النحو، وصعوبات تتعلق بمادة النحو، وتأثر اللغة العربية الحديثة في مختلف المجالات.

Abstract:

This research is trying to identify the reasons that have led some students of Arabic and the like to renew calls and facilitate the Arabic grammar and fix it, has outlined the five reasons are : The ambiguity and complexity of the scientific article inherited, The existence of a vast Bonn between theories as Arab and the reality of today, The futility of teaching method adopted in the way , Difficulties related material way and arabic Modern affected in various fields.

النحو العربي في طبيعة نشأته كان فنا قبل أن يكون علما، وقد ظهر بصورة وظيفية كاستجابة طبيعية لظهور اللحن وحفظا للقرآن الكريم، وقد نشأ هذا العلم كغيره من العلوم، وتطور وازدهر، وتلك النشأة والتطور كانا في خضم مناخ إسلامي عام، وبمرور الزمن استعين على الدرس النحوي بما ليس منه مما أثقل كاهله بالمسائل والخلافات والتطرق إلى دقائق الأمور، ويمكن حصر تلك العيوب التي نجمت عنها فيما يلي:

- إقحام الفلسفة والمنطق وعلم الكلام في النحو، ولذلك لم يسلم من الخطأ، فبمرور السنين وبتأثر النحاة بعلوم غريبة بعيدة عن غاية النحو صار عبءا على اللغة، فابتعد النحو قليلا عن الغاية التي وضع من أجلها.

- جعل النحو عبارة عن قواعد وقوانين وإهمال النصوص الفصيحة أدى بالمتعلمين إلى القصور في العربية، وذلك كما يقول ابن خلدون: " لأن العلم بقوانين الإعراب، إنما هو علم بكيفية العمل وليس نفسه هو العمل، وكذلك تجد كثير من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذوي مودته، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن "[1].

- التعصب لمدرسة بعينها أو لعالم من العلماء أو كتاب مع إلغاء الآخرين وجعل الدرس النحوي ينكمش، وحرم الطلبة من بقية الآراء القيمة المبثوثة هنا وهناك[2].

مرحلة النشأة هذه وحركة تقعيد النحو العربي بما لها وما عليها، جعل البعض يضجر مما آل إليه واقع الدرس النحوي ورأوا أن هناك مبررات لما سمي بحركة تجديد النحو.

مبررات التجديد والإصلاح:

كثرٌ هم دارسو اللغة العربية ونحوها إذا تكلمت إليه يشتكي من النحو وصعوباته، حيث يرون أن النحو شيء معقد، يعسر فهنه، وفي الحقيقة أن هذه الشكوى من صعوبة النحو ليست وليدة اليوم بل هي قديمة، فهذا أبو علي الفارسي (ت 377هـ) ينقد أبا الحسن الرماني (ت 374 هـ) بقوله:" إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما تقوله فليس معه منه شيء "[3].

وكذا في زمان عبد القاهر الجرجاني فقد أنكر على النحاة اهتمامهم بالنحو وغلوهم فيه، فما بالك بناس اليوم؟! فلقد جاء في دلائل الإعجاز قولهم: " وإنما انكرنا أشياء كثرتموه بها، وفضول قول تكلفتموها، ومسائل عويصة تجشمتم الفكر فيها، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين، وتعايوا بها الحاضرين "[4].

وقد ضاق الناس ذرعا بمسائل النحو وضجروا من جدل النحاة وتعسفهم وتكلفهم، إذ كان الجدل يدور" بين العلماء المتخصصين فيما يحذف بدعوى أنه لاحاجة إليه، وفيما ينبغي أن يبقى بدعوى أنه لا يستغنى عنه، وخلال هذا الجدل تطايرت سهام الاتهام من كل جانب "[5]. كما تبرموا حين أنزل بعضهم النحو منزلة الغاية لا الوسيلة.

ويمكن حصر أسباب التبرم والضجر من النحو العربي الداعية إلى ضرورة تيسيره وتخليصه من التعقيد والغموض فيما يلي:

1/- غموض وتعقد المادة العلمية الموروثة:

لقد اختلف القدامى في (التواضع)، فجاءت بذلك المصطلحات متعددة للمفهوم الواحد أو العكس، وهذه المصطلحات كما يقول أنيس فريحة: " وإن كانت مقبولة عند القدامى من اللغوين، تبقى كثيرة وليست دقيقة ... بعضها مبهم وبعضها مستغرب "[6]. كما أنه يرجع هذه المصطلحات إلى أنها وليدة المنطق والفقه وما تتفق عليه المجامع الفقهية.

كما أن هناك إشكالا كبيرا في ربط المصطلحات النحوية والتعارف بالمعاني والدلالات، فكثير منا من يردد (نون الوقاية) ولا يعلم معنى ذلك، أو يقول معربا (فعل مضارع) ولا يدرك لم سمي ذلك الفعل مضارعا؟ وكذا حركة المناسبة وغيرها.

لذلك يجب أن تدرس المصطلحات النحوية والتصريفية بطريقة متكاملة وترتب الأبواب والمسائل وفق منطقية مدروسة، تراعي قدرات المتعلمين ومستوياتهم، وربا جاز الاستغناء عن بعض المصطلحات والفروع التي لا أثر لها في تقويم اللسان أو القلم.[7]

كما أننا نجد اللغويين قد انساقوا نحو الشكل دون المعنى في تركيب الجملة ووضع القاعدة، ومثال ذلك ما ورد في (باب الفاعل ونائب الفاعل).

أضف إلى هذا تفلسف اللغويين في وضع القاعدة النحوية، حيث نجد النحاة لم يكتفوا بوضع القاعدة بل تعدوا ذلك إلى الخوض في العلل، والمعمولات عند شذوذ شاهد عما تواضعوا عليه، وهذا العمل ألزمه عليهم تمسكهم بنظرية العامل التي أُولع بها النحاة، كما أن النحاة قد جمعوا ما كان يجب أن يفرق وفرقوا ما كان يجب أن يجمع، تحت باب واحد في بعض الأحيان، ضمن ما يسمى بفوضى التبويب. وعلى العموم فإنه لا يمكن لأحد أن ينكر صعوبة النحو " فيروى أن رجلا قال لابن خلويه: أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني، فقال له: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ما تعلمت ما أقيم به لساني "[8]. وإن كان يبدو في ذلك مبالغة فيما رد به ابن خلويه.

وإذا كنا نرى أن الدرس العلمي لا يعترف بالغموض، بل يسجل ويلاحظ، وعليه فإننا نرى بضرورة إعادة النظر في النصوص الشائعة المرفقة والبحث عن منهج علمي سهل في بناء القواعد إذ تيسر للناشئة التمكن من استيعاب اللغة وتمثلها.

2/- وجود بون شاسع بين نظريات النحو وواقع العربية اليوم:

إن لكل لغة ميزات تمتاز بها خاصة اللغات العريقة، وأما الصعوبات التي ترجع إلى طبيعة اللغة العربية فذلك مرتبط " بصعوبة نحوها الذي كتب منذ ما يقارب ألف عام، وقلما تغير بعد ذلك على الرغم من المحاولات العلمية التي دعت بذلك لدراسته وتيسيره "[9].

وإن كانت صعوبة النحو في هذا الشكل لاتعود إليه هو ذاته بقدر ما تعود على البعد الزمني بيننا وبين الرعيل الأول الذي أعد النحو العربي، وكذا اختلاف المنهج في تناول المادة النحوية، واختلاف اللغة المنطوقة (اللغة العامية) عن اللغة المكتوبة (اللغة الفصحى)، وهذا لا يمكن أن يضعف اللغة العربية لأن كل اللغات لها علاقة الازدواجية بين الفصحى والعامية وهما غير متطابقتين بحكم التاريخ كما تقول عائشة عبد الرحمن، وهذا الأمر مردود بحكم منطق الواقع المحكوم بسنن الاجتماع اللغوي. في حين أن حسام الخطيب يرى رأيا غير ذلك، وهو بتجديد ما " يلبي احتياجات التلميذ والعصر والمجتمع الذي نعيش فيه، وبين المحافظة والتمسك باللغة والحفاظ على أصالتها "[10] وقد ردت عليه ظبية السليطي في هذا الأمر، بأن هذا شيء طبيعي إذ " نجدد ونيسر ونطور اللغة، ذلك لأن لكل عصر خصائص يمتاز بها، ولكل مجتمع فلسفته "[11].

كذلك ضعف اللغة العربية وهذا في جميع المستويات سواء أكان على المستوى التعليمي، أو الفكري، أو العلمي، وهذا لا يرجع إلى العربية في حد ذاتها بقدر ما يتعلق بمتمدرسي اللغة ذاتها، إذ أنهم " يتعلمون بمعزل عن سليقتهم اللغوية قواعد مصنعة، وقوالب صماء، تجهد المعلم تلقينا والتلميذ حفظا، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها وبيانها"[12]، وهذا راجع إلى طول الفترة الزمنية بيننا وبين واضعي النحو العربي وكذا الاختلاف عنهم فيما يخص حالة العربية عندنا وعندهم من حيث الاستعمال.

ومن ذلك عدم الإلتزام بالفصحى أثناء التحدث أو الكتابة خاصة في المدرسة أو الجامعة، وليس ذلك فقط أثناء الدرس بل في كل المعاملات في المحيط المدرسي والجامعي، وقد يكون مبالغ فيه

إن كانت المؤاخذة على عدم الالتزام بالفصحى حتى في خارج الإطار التعليمي، ولكن ضعف الثقافة اللغوية للمجتمع يحول دون ذلك، وهو ما يؤثر سلبا على مدى استيعاب الدرس النحوي.

3/- عقم الطريقة المعتمدة في تدريس النحو:

من ذلك عدم تحديد المستوى اللغوي للمتعلم في كل مرحلة دراسية، وهذا مرتبط بالجانب التدريسي للغة، إذ أن اختيار المادة المدروسة في النحو للتلاميذ لا يتم وفق حاجات التلاميذ بقدر ما يكون من اختيار المتخصصين، وبحسب احتياجات التلاميذ في مرحلة ما يمكن أن نجد المستوى اللغوي لكل مرحلة، وذلك من خلال كتاباتهم وقراءاتهم في مختلف ميادين الفكر العامة.

كذلك افتقار مناهج اللغة العربية لما يحتاج إليه النشء، فبالرغم من أن مناهج تدريس اللغة العربية مدروسة إلا أنها لم توفق في أن تصطنع منهاجا يتماشى وما يحتاج إليه النشء وتذهب إليه اهتماماتهم، فما يدسه التلاميذ شيء وما يمارسونه شيء آخر" أدى كل ذلك إلى أن تكون المناهج بعيدة كل البعد عما يتعلق باهتمامات التلاميذ وحاجاتهم وخبراتهم "[13].

أضف إلى هذا ورغم الدور الذي يلعبه المعلم، وخاصة معلم اللغة العربية في التعليم والإعداد، إلا أنه لا يزال يعاني ضعفا كبيرا سواء في اعداده الأكاديمي أو المهني، ويتسبب ضعفه هذا في عزوف الكثيرين عن دراسة اللغة العربية، خاصة طلاب الجامعة.

كذا اختيار القواعد النحوية وتشعب التفاصيل على أساس من منطق الكبار وفكرهم على أن الاختيار الصحيح في اختيار مناهج القواعد النحوية ينبغي أن يكون مبنيا على احتياجات التلاميذ والترتيب المنطقي للمادة"[14].

ولقد أكد كثير من الباحثين أن صعوبة النحو لا تعود إلى المادة في حد ذاتها بقدر ما تعود إلى طريقة تدريسها، حيث أن لطريقة التدريس دور كبير في إبداء سهولة المادة أو اضفاء شيء من الصعوبة عليها، فإذا درست مادة اللغة بطريقة ممتعة وحديثة من حيث التشويق والأسلوب فإن ذلك يبدي سهولة في المادة وقد لوحظ أنه في الطريقة المعتمدة يكون التركيز" على القواعد في حد ذاتها وإغفال الجانب المهم في ذلك وهو جانب التذوق والإحساس بها ومعايشتها وممارستها "[15].

4/- صعوبات تتعلق بمادة النحو:

وتتمثل مظاهر تلك الصعوبة في الجوانب الآتية:

أ- اعتماد النحاة في وضعهم لعلم النحو على منطق العقل – أي أنه معياري – دون الاهتمام بمنطق اللغة وطبيعتها الوصفية.

ويمكن أن نشاطر الدكتورة السليطي في رأيها هذا إذا نظرنا إلى ما بررت به قولها " بعدما انتهى عصر الاستشهاد استمر اللغويون في دراسة اللغة عن طريق ما وصفه السلف من قواعد اللغة عن طريق مادة اللغة، من هذا بدأ فرض القواعد على الأمثلة وبدأ القول بالوجوب والإيجاز "[16].

ولكن يجب أن ندرك أن النحو العربي في بادئ الأمر كان بمنطق اللغة الوصفي، أي أنه حسب طبيعة اللغة؛ إذ لم يكن لعامل العقل دخل إلا بعد ارساء دعائمه وقواعده الأصلية ونشأته منشأ صواب مرتبط وطبيعة اللغة.

ب- تأثر واضعي علم النحو بعلماء الكلام في أن كل أثر لابد له من مؤثر والامعان في ذلك انتهى إلى نظرية العامل وإلى الحديث عن العلل وعلل العلل.

ج – " كثرة ما في القواعد من أقوال ومماحكات واختلاف مسائلها، واعتمادها على التحليل المنطقي "[17]. وذلك من خلال الجدل القائم بين المداس النحوية وتضاربها وكثرة المسائل واختلافها بسبب أنه لابد للطرف الآخر من رأي حتى يرد على الطرف الأول، الشيء الذي أدى إلى تعقيد النحو من خلال اعمال المنطق والتطرق إلى العلل من خلال أن لكل سبب مسبب، وهذا مما عمق العملية النحوية على الدراسة.

5/- تأثر العربية الحديثة في مختلف المجالات:

وهذا التأثر كان باللغات الأجنبية بالأساس خاصة في مجال الأسلوب، سواء تعلق الأمر بالجانب السياسي، الثقافي، أو الاعلامي ... الأمر الذي يجعل فصحى النحاة غريبة عنا في كثير من المجالات.

من ذلك تسرب بعض السواليب الأعجمية إلى لغتنا، على أن هناك من ادعى أن لها أصولا عربية في لغتنا ومثال ذلك استخدام الفعل (عاد) (يعود) في نفي شيء على أنه كان موجود قبل ذلك كقولنا: فلان لم يعد قادر على المشي أو لم يعد صديقا لي، " فهذا الأسلوب على شاكلة أسلوب النفي في اللغة الفرنسية الذي تستخدم فيه أداة (ne plus)

مثل (iln`est plus monami /il ne pleut plus marcher) "[18].

وهناك من هوّن من أمر هذا الفعل على أنه من أخوات (رجع) أو يشابهها وقد ورد ذلك في العربية ففي الحديث (لا ترجعوا بعدي كفارا) أي بعد أن كنتم مسلمين.

وإلى جانب ذلك تسرب إلى أقلامنا أساليب لا نزاع في أعجميتها إذ لا توجد لها نظائر في الأساليب الفصيحة وذلك مثل قولنا:

فلان لا يرى أبعد من أرنبة أنفه ← - il ne voit plusloique le bout son nez.

أعطاه صوته في الانتخابات ← – il a donne` savoix

ازدهرت التجارة ← - le commerce fleurit

وعادة ما تشيع مثل هذه الأنواع من الأساليب لدى الصحافة، وهذا مما لا شك فيه أنه سوف يضيف لعربية القدامى غرابة عنا، بسبب دخول أساليب غريبة عن العربية ككل، وهذا النوع من تعريب الأساليب إن صح تسميته كذلك هو الذي ينبغي أن نقاومه ونعمل على القضاء عليه[19].

يبقى ونقول أن الدعوة إلى إصلاح النحو وتخليصه مما علق به من شوائب هي دعوة قديمة، إلا أن هناك محاولات معاصرة انطلقت من المبررات التي ذكرناها محاولة النفاذ إلى الأعماق، الشيء الذي ينمي روح البحث والاطلاع على التراث الذي وصل إلينا بغثه وسمينه ومحاولة غربلته.

وكذا انطلاق محاولات التجديد هذه من منطلق ومفهوم إصلاح النحو، وما ارتبط به من مفاهيم أخرى كمفهوم التيسير والتجديد، فالقصد منها أن تكون ثمة قراءة في التراث وفق منهج محدد، ويحوّل هذا التراث من معرفة ميتة إلى معرفة حيّة، ومن أداة للزينة إلى أداة للمعرفة، وليس القصد منها أن يكون ثمة نحوا جديدا مبتكرا فهذا مما لا يتحقق.

الهوامش:

[1]- ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، 2004، ص579.

[2]- أعمال ندوة تيسير النحو، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001، ص 2.

[3]- ابن الانباري، نزهة الالباب، تح: محمد أبو الفضل و إبراهيم مصطفى المدني، د ط، 1968، ص 390.

[4]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، تع: محمد أبو الفضل شاكر، موفم للنشر، الجزائر، د ط ، 1991، ص 29.

[5]- محمد إبراهيم عبادة، النحو التعليمي في التراث العربي، منشأة المعارف، الاسكندرية، د ط، د ت، ص 15، 16.

[6]- أنيس فريحه، تبسيط قواعد اللغة العربية، مطابع المرسلين اللبنانيين، بيروت، د ط، د ت، ص 49.

[7]- أعمال ندوة تيسير النحو، ص 109.

[8]- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: إبراهيم أبو الفضل، الدار المصرية اللبنانية، مصر، د ط ، 1326 هـ، ص 5.

[9]- ظبية سعيد السليطين تدريس النحو العربي في ضوء الاتجاهات الحديثة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2002، ص 29.

[10]- نفسه، ص 30.

[11]- نفسه، ن ص.

[12]- نفسه، ص 35.

[13]- نفسه، ص 30.

[14]- نفسه، ص 38.

[15]- عباس محجوب، مشكلات تعليم اللغة العربية (حلول نظرية وتطبيقية)، دار الثقافة، الدوحة، د ط، 1986، ص 68.

[16]- ظبية سعيد السليطين تدريس النحو العربي في ضوء الاتجاهات الحديثة، ص 40.

[17]- نفسه، ص 37.

[18]- علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط 8، د ت ، ص 239.

[19]- نفسه، ص 141.